مسئولية
الاحتلال الانجليزى لمصر

للأستاذ كمال السيد درويش

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

— ٣ —

هل تقع مسئولية الاحتلال البريطانى على الإنجليز وجشعهم الاستعمارى ؟

ولم لا ؟

ألم يتعللوا للبقاء فى مصر بشتى المعاذير حتى واتتهم الظروف فكشفوا عن نيتهم الصريحة فى الاحتلال بإعلان الحماية على مصر سنة ١٩١٤ م

ألا يدل على ذلك قصة تلك الوعود الرسمية التى قطعها باسم إنجلترا ممثلوها الرسميون « إن رغبة حكومة جلالة الملكة هى أن تترك المصريين وشأنهم بعد أن تخلص مصر من الطغيان العسكرى »[1] قبل هذا سنة ١٨٨٢ م . وهذا تصريح آخر : « إن الشك الذى يخامر الرأى العام سببه رغبة بعضهم فى احتلال مصر احتلالاً مؤبداً وإدماجها فى هذه الأمبراطورية . وتلك غاية نحن مصممون على مدافعتها وعلى ألا نسعى إليها بحال من الأحوال »[2] بل لقد ذهبت إنجلترا إلى أبعد من ذلك فحددت تاريخاً معيناً للجلاء . وأى والله حدث هذا « إن حكومة جلالة الملكة تريد أن يكون سحب الجنود فى أول عام ١٨٨٨ م »[3]

لقد أورد المستر بلنت فى مقدمة كتابه (تاريخ المسألة المصرية) قصة هذه الوعود الرسمية ثم علق عليها بقوله « حقاً إنه ليس فى تاريخ جميع إجراءات إنجلترا الاستعمارية عهود كهذه بدلت ثم نقضت » .

إن قصة ضرب الاسكندرية لا تحمل فى طواياها إلا حجة الذئب حين أراد التهام الحمل . لقد كانت نية الاعتداء المتعمد واضحة منذ البداية . وإلا فلماذا أتى الأسطول إلى ميناء الإسكندرية وبأى حق يقف فى المياه المصرية ؟ وكيف يجرؤ فيتدخل فيما ليس من حقه التدخل فيه حين يطالب بوقف أعمال الترميمات فى الحصون والطوابى ويتخذ بذلك تلك الحجة الواهية لتبرير ذلك الاعتداء الوحشى .

لقد أجمع من كتب فى حوادث ذلك الاحتلال من المعاصرين أو ممن جاءوا فى أعقابه على أن نية الاحتلال كانت مبيتة لدى إنجلترا قبل ضرب الاسكندرية بكثير . وقد شاهد المستر بلنت بنفسه الاستعدادات الحربية تجرى فى إنجلترا منذ شهر يونية سنة ١٨٨٢ م .

إن إلقاء التبعة على إنجلترا مما لا يختلف فيه اثنان وهو ما حققته الحوادث فيما بعد .

ولكن مهلاً أيها القارىء العزيز فإن احتلال مصر جريمة أكبر من أن تقترفها يدٌ واحدة كيد عرابى أو كيد الدولة العثمانية أو الخديو أو حتى يد إنجلترا نفسها .

حقاً لقد أخطأ عرابى ؛ ولكن ، من ذا الذى لا يخطىء ؟ وهل يكون خطأ عرابى سبباً فى إلقاء تبعة الاحتلال بأسره عليه

وحاول أن يستخدمه فى مسألة من أدق المسائل وأعقدها . إنها لمحاولة جريئة وهى ليست الوحيدة من نوعها فى فلسفة المعتزلة .

* * *

من هذا نستخلص أن جل هم المعتزلة هو رد الصفات ومن ضمنها صفة العلم إلى ذات الله تعالى . وبما أن هذه الذات قديمة لا متناهية ثابتة فيكون العلم أيضاً قديماً لا متناهياً ثابتاً . ثم إن الله لم يزل يعلم كل الأمور وإذا كان العالم قديماً بالنسبة إلى علمه تعالى فإنه يتحقق فى الزمان تبعاً لهذا العلم — أما فيما يختص بمسألة قدرة الإنسان على أعماله فالمعتزلة تحلها بقولها إننا نشعر بحرية الاختيار وإننا نجهل علم الله وإن عدل الله يضطرنا إلى القول بهذه الحرية — وكل المسألة الأخلاقية متوقفة عليها .

ألبير نصرى نادر
دكتور فى الآداب والفلسفة

(١ ، ٢ ، ٣) تاريخ المسألة المصرية — تيودور ريتشيد — مقدمة مستر بلنت .

وفي تصويره بتلك الصورة التي لا تليق بهذا الزعيم الوطني المصري العظيم ! لقد أحس الأستاذ محمود الخفيف أن عرابي مظلوم وأن أعداءه بالغوا في التكيد له والزراية عليه حتى قال : « والحق أنه قلّ أن نجد في رجالنا رجلاً ضاعت حسناته في سيئاته كما ضاعت حسنات عرابي فيما افتري عليه من سيئات . كذلك قلّ أن نجد في رجالنا رجلاً كرهه أكثر بني قومه مضللين ، واستنكروا أعماله جاهلين بقدر ما كره هؤلاء عرابياً »(١) .

ونحن نميل إلى هذا الرأي الأخير لا بدافع التعصب أو الرغبة في إنصاف عرابي ولكن بدافع الرغبة في إنصاف الحقيقة والتاريخ وكلاهما كما تبين لي ينصفان عرابي . وسأسوق من الأدلة التاريخية ما يقف إلى جانب ما كتبه صاحب كتاب « أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه » عسى أن تتغير نظرة المصريين إلى زعيم المصريين .

ولكن ، ما هي تلك الحقائق التاريخية ؟

الواقع الذي كشف عنه البحث العلمي الحديث أن احتلال مصر كان شيئاً مقرراً ومرسوماً قد اتفقت عليه الدول الأوربية من قبل . لقد تمت حوادث الاحتلال خلال صيف سنة ١٨٨٢ م ولكن .. ولكن الاتفاق على فكرة الاحتلال نفسها كان قد سبق ذلك بكثير .

لقد كانت الوحدة الألمانية وكان ظهور بسمرك عامل ألمانيا العظيم وأكبر سياسي سيطرت شخصيته على مجرى الحوادث الأوربية في ذلك الحين . وكانت الحرب السبعينية (١٨٧٠) م فانتصر ثون مولتكه ودخل الألمان باريس وخرت فرنسا جاثية على ركبتيها أمام جيوش بسمرك والألمان . ولكن بسمرك كان يجمع إلى القوة الحربية دهاء السياسة وحذقهم . فرأى بثاقب نظره أن حزب الانتقام يتكون في فرنسا وينادي بأخذ الثأر من ألمانيا فلم يكن منه إلا أن فكر في شغل أذهان الفرنسيين من الناحية بالانتقام فوجه أطماعهم خارج القارة الأوربية وأوحى إليهم بتوسيع أمبراطوريتهم الإفريقية . وهكذا أخذ بسمرك يلوّح للفرنسيين بضرورة احتلالهم لتونس ، ولكن احتلال فرنسا لتونس سيترتب عليه اختلال توازن القوى بينها وبين إنجلترا في البحر الأبيض .

وانتهز ساسة إنجلترا فرصة تساهل بسمرك فرحبوا بفكرة احتلالهم لمصر مقابل السماح لفرنسا باحتلال تونس .

« والواقع أن فكرة احتلال إنجلترا لمصر مقابل احتلال فرنسا لتونس إنما ترجع إلى أوائل عام ١٨٧٦ حين رأى بعض الساسة الإنجليز أن على إنجلترا انتهاز الفرصة واستغلال الفرص الذي قدمه بسمرك باستيلاء إنجلترا على مصر في مقابل تمكين فرنسا من احتلال تونس »

وبدأت الفكرة ؛ فكرة احتلال إنجلترا لمصر تتقدم منذ ذلك الحين على يد بسمرك لا لشيء إلا لأنه يريد أن يسكت إنجلترا حين تقوم فرنسا باحتلال تونس .

وفي ابريل سنة ١٨٧٨ نجد « مونستر » السفير الألماني في لندن يؤيد فكرة احتلال إنجلترا لمصر ويدعو لها كما يتحمس لها في ذلك الحين أيضاً « سولسبري » من الجانب الإنجليزي .

وهكذا تنمو فكرة احتلال إنجلترا لمصر مع فكرة احتلال فرنسا لتونس وتسيران جنباً إلى جنب يؤيدهما ويباركهما بزمارك عال ألمانيا برضائه وبتأييده ونفوذه .

لقد كتب مراسل التيمس إلى جريدته في ٢٥ أبريل سنة ١٨٧٨ م يقول : « لقد روى لي بسمرك بنفسه أنه قال للورد بيكونسفيلد حين شاهده لأول مرة أن من صالح إنجلترا أن تتفاهم مع الروسيا على أن تدعها حرة في القسطنطينية مقابل إطلاق يد انجلترا في مصر » .

وهكذا أصبح مفهوماً من ضمن أحاديث الساسة أن الاتفاق قد تم على هذا التقسيم . وحين أراد ساسة فرنسا السير جدياً في مشروع احتلال تونس سعوا إلى الحصول على تأكيد كتابي من إنجلترا حتى لا تعود فتتنكر لما تعلمه ساستها من عهود . وقد حصل الفرنسيون على هذا التأكيد الكتابي في ٧ أغسطس سنة ١٨٧٨ م . ثم يسعى الإنجليز بعد ذلك بدورهم للحصول على تأكيد رسمي من فرنسا بموافقتها على احتلالهم لمصر فيشيرون الشاكل أمامها في تونس ويقفون عقبة دون القيام باحتلالها . ويتساءل الفرنسيون : « لماذا تلجأ إنجلترا إلى إقامة العقبات أمامنا في تونس؟ إن لها في البحر الأبيض وسوف يكون لها مصالح كثيرة . وسوف تمد إليها يد المساعدة . ولكن هذا التلميح لا يكفي ؟

(١) محمود الخفيف . أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه . مطبعة الرسالة القاهرة . ص . ٣٢ ، ٣٣

فيضطر وزير الخارجية الفرنسي « سنت هيلير » إلى التصريح « بتفوق المصالح الإنجليزية في نهر النيل وقناة السويس على المصالح الفرنسية » ثم يؤكد في ديسمبر سنة ١٨٨٠ « أنه على استعداد دائم للتصريح بأن المصالح البريطانية في مصر تفوق غيرها من مصالح أي دولة أوربية أخرى » .

وهكذا تقاسمت الدول الأوربية الأمبراطورية العثمانية وهي لا تدري . وبدأ المتنافسون بينها في التقسيم يتمو منذ عام ١٨٧٦ م وقام بسمرك بدور القاضي يوزع بالعدل والقسطاس المستقيم ؛ يرضي فرنسا حيناً ويرضي إنجلترا حيناً آخر ، ولكن على حساب تلك الأمبراطورية التي كانت تسير بخطى سريعة إلى نهايتها المحتومة . ولقد لاحظنا كيف تبادل المندوبون التصريحات والتأكيدات حتى لا يتطلع فيها منزان . بل لقد كانت الملكة فيكتوريا نفسها — كما يتبين من خطاباتها — من أكبر مؤيدي مشروع احتلال إنجلترا لمصر وتثبيت أقدامها في وادي النيل .

وبينما كانت الصحافة الإنجليزية تمهد الرأي العام في الداخل لتقبل ذلك الحدث الجديد ؛ كانت السياسة الإنجليزية — وقد نالت تأييد بسمرك وفرنسا — قد انفردت بالتدخل في شئون مصر لا سيما بعد أن تلقى ممثلو فرنسا في مصر من وزير خارجيتها تعليمات سرية تدعوهم إلى الموافقة على ذلك الوضع الجديد .

وهكذا نجد أن وثائق التاريخ الحديثة قد أثبتت أن فكرة احتلال إنجلترا وُجدت منذ أواخر عهد إسمعيل . وأن إنجلترا بدأت تعمل جدياً لتحقيقها منذ سنة ١٨٧٦ ، وأن ما حدث من حوادث قبل الاحتلال لم يكن إلا من قبيل ذر الرماد في العيون ، فاشتراك الدول في مؤتمر الآستانة لا سيما فرنسا كان تمثيلية رائعة أريد بها التمويه على الدولة العثمانية ؛ وقد نجحت تلك التمثيلية نجاحاً باهراً ، وقل مثل ذلك في انسحاب الأسطول الفرنسي من ميناء الاسكندرية قبل ضربها وترك الأسطول الانجليزي يصول ويجول وحده في الميدان . ولماذا ؟ ألم يدع الإنجليز فرنسا قبل ذلك بعام واحد تصول وتجول هي الأخرى بجردها في ميدان تونس ؟!

لذلك لا نذهب بعيداً إذا قلنا أن الاحتلال الإنجليزي لمصر كان سيتم سواء وُجد عرابي أم لم يوجد ، وسواء قام بحركته أم لم يقم ؛ فما كان من الصعب على إنجلترا أن تخلق سبباً مباشراً لتلك الجريمة التي اشترك في إعدادها ساسة ألمانيا وفرنسا وأخيراً ساسة إنجلترا .

لقد كان الاحتلال الإنجليزي لمصر وليد السياسة الأوربية ولم يكن نتيجة للحركة العرابية .

فكيف يكون عرابي مسئولاً ؟ وكيف نتحامل عليه ؟ — لقد بذل عرابي أقصى ما في طاقته ؛ ولم يظهر عرابي لظهر مكانه عرابيٌ آخر ، ذلك أن عرابي كان يمثل الشعب المصري وما كانت الحركة التي قام بها حركته هو بل حركة الشعب المصري بحسناته ومساوئه في ذلك الحين .

حقاً ، لقد آن لنا أن ننصف تاريخ عرابي — الزعيم المفترى عليه بحق — وأن ننصف تاريخ الثورة العرابية لا بدافع التعصب لقوميتنا ولكن لوجه الحقيقة والحقيقة وحدها .

إن مسئولية الاحتلال البريطاني لمصر لا تقع إلا على عاتق الدول الأوربية وعلى رأسهم بسمرك .

لقد كانت الدولة العثمانية أشبه بالرجل المريض أو الكهل الهرم . كان الداء قد سرى في جميع أعضائها ؛ وكان الضعف قد دب في جميع أوصالها . واتسع الخرق على الراقع فوقفت مكتوفة اليدين لا تشهد النجاة والخلاص إلا في بقاء النزاع والاختلاف بين أهلها .

فعلى من تقع مسئولية الاحتلال ؟!

ألست معي أيها القارىء العزيز في أنها تقع على عاتق بسمرك — ذلك الرجل الذي وقف بين المتنازعين فقاموا يتقاسمون بركة نفوذه وسيطرته تركة الرجل المريض ولكن إنجلترا من احتلال مصر خرجت من عملية البر بأحسن نصيب ؟!

(الاسكندرية) كمال السيد درويش

ليسانسيه الآداب بامتياز ودبلوم معهد التربية العالي
ومدرس بالرمل الثانوية
وعضو الجمعية التاريخية المصرية بجامعة فاروق